﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذَكَرَ ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ذَكَرَ ما يَفعَلُ بهم تعالى مِن صَرفِهِ إيّاهُم عن آياتِهِ لفِسْقِهِم وخُرُوجِهِم عن طَورِهِم إلى وَصْفٍ ليسَ لَهُم، ثمّ ذَكَرَ تعالى مِن أحوالِهِم ما استحقُّوا بِهِ اسْمَ الفِسقِ[1]، كأنَّه قِيلَ: وكيفَ يَختارُ عاقِلٌ ذلكَ؟ فكيفَ بمَن رأى الآياتِ، وشاهَدَ المُعجزاتِ؟ فَقالَ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾؛ أي: المَسمُوعَةِ والمَرئيَّةِ على عَظَمَتِها بما أشارَت إليهِ الإضافَةُ بالصّرفِ عَن فَهمِها واتِّباعِها، والقُدرَةِ على الطّعنِ فيها بما يُؤثِّرُ في إبطالِها[2].

بعدَما تَوعَّدَ اللهُ الفاسقينَ، ذَكَرَ مِن أحوالِهِم في الغَيِّ، ما استحقُّوا به وصْفَ الفِسْقِ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَأَصۡرِفُ﴾: الصَّادُ والرَّاءُ والفاءُ مُعظَمُ بَابِهِ يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[3]، وردِّهِ عن وَجهِهِ[4]، أو ردِّهِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالِهِ بغيرِهِ[5]، ومِن فَحوَى ما تقدَّمَ مِن مَعانٍ ذَهَبَ المُفسِّرونَ إلى أنَّ معنى الصّرفِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾؛ أجعَلُ جَزاءَهُمُ الإضلالَ عَن هِدايَةِ آياتِي[6]، والمنعَ، والصّدَّ، والدّفعَ عن تعطيلِها، وإبطالِها[7].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/388.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(4) ابن سيده، المحكم: (صرف).
(5) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(6) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/376، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صرف).
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.

فمعنى صَرفِهِم عَنها مَنعُهم بالطّبعِ على قُلُوبِهِم؛ فلا يَكادُونَ يَتَفَكَّرُونَ فِيها، ولا يَعتَبِرونَ بها؛ لإصرارِهِم على ما هُم عَلَيه مِنَ التَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ[1].

2) ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾: الرَّاءُ والشِّينُ والدَّالُ أَصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على استِقَامَةِ الطَّرِيقِ[2]، ورشدَ فلانٌ: إذا أصابَ وجهَ الأمرِ والطّريق، فالإرشادُ: الدّلالةُ والهِدايةُ، وهو نقيضُ الغيِّ، والضّلالِ، والخيبةِ[3]. والرُّشْدُ، بالضّمِّ: الاستِقامَةُ على طَريقِ الحَقِّ مَعَ تَصَلُّبٍ فِيهِ[4].

ومِن أسماءِ اللّهِ تعالى (الرّشيد) هو الّذي أَرشَدَ الخَلقَ إلى مَصالِحِهم؛ أي: هداهُم ودلَّهُم عليها، وأحسَنَ تَقديرَهُ فِيمَا قَدَّرَ. وقِيلَ: هو الَّذِي تَنسَاقُ تَدبيراتُهُ إلى غَاياتِها على سَبيلِ السَّدادِ مِن غيرِ إشارةِ مُشيرٍ ولَا تَسديدِ مُسدِّدٍ[5]، فهوَ الهادي إلى سواءِ الصّراطِ، والّذي حَسُنَ تقديرُهُ فيما قَدَّرَ[6]، ولا تَخرُجُ دلالةُ لفظةِ ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ عن ما عُرِضَ مِن مَعانٍ.

3) ﴿ٱلۡغَيِّ﴾: الغَينُ والوَاوُ واليَاءُ أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا يدُلُّ على خِلَافِ الرُّشدِ وإظلَامِ الأَمرِ، والآخَرُ على فَسَادٍ في شَيءٍ، فالأَوَّلُ الغَيُّ، وهو خِلَافُ الرُّشدِ، والجَهلُ بالأَمرِ، والانهِمَاكُ في البَاطِلِ، والأَصلُ الآخَرُ: قَولُهُم: غَوِيَ الفَصِيلُ، إذَا أَكثَرَ مِن شُربِ اللَّبَنِ فَفَسَدَ جَوفُهُ[7]، وعَقَّبَ ابنُ فارسٍ بأَنَّ الأصلَ الأَوَّلَ عندَهُ مُشتَقٌّ مِنَ الغَيَايَةِ، وَهِيَ الغُبرَةُ وَالظُّلمَةُ تَغشَيَانِ، كأَنَّ ذَا الغَيِّ قَد غَشِيَهُ مَا لا يَرَى مَعَهُ سَبِيلَ حَقٍّ[8]، وأكَّدَ هذا المعنى عندَ تناولِهِ معنى لفظِ الغيِّ في بابٍ سابقٍ بقولِهِ: "الغَينُ، واليَاءُ المُشَدَّدَةُ أوِ المُضَاعَفَةُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ عَلَى إظلَالِ الشَّيءِ لِغَيرِهِ"[9]، فالغيُّ: الفسادُ، والضَّلالُ، والخيبةُ، والانهماكُ في الباطِلِ[10].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (رشد)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/283.
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(5) ابن الأثير، النّهاية، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (رشد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غي).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (غوي)، وابن الأثير، النّهاية: (غوا).

وهو أيضًا جَهْلٌ من اعتقادٍ فَاسِدٍ، وذلكَ أنَّ الجَهْلَ قد يكونُ من غَيرِ اعتقادٍ[1]، ومَن غَوِيَ حُجِبَ عنِ الرَّشَدِ، وضلالُه مُسبَّبٌ عن هوًى، أو ما هوَ من بابِهِ، وفيه معنى الانجذابِ إلى ما يَترتَّبُ عليهِ الفسادُ فكأنّ فيه درجةً مِنَ التَّعمُّدِ[2].

وعليهِ فسبيلُ الغيِّ في الآيَةِ هو سبيلُ الضّلالِ[3]، ويَحتمِلُ أيضًا معانيَ الفسادِ، والخيبةِ، والانهماكِ في الباطِلِ.

4) ﴿غَٰفِلِينَ﴾: الغَينُ والفَاءُ واللَّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ سَهوًا، ورُبَّمَا كانَ عَن عَمْدٍ[4]. وأَغفَلْتَ الشَّيءَ: تركتَهُ غُفْلًا، وأنتَ له ذاكِرٌ. والمُغَفَّلُ: مَن لا فِطنةَ ولا إربَ لَهُ[5]. الغَفلةُ: هي سَهْوٌ يَعْتَري الإنسانَ من قِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ[6]، وفَقْدِ الشُّعورِ بِمَا حَقُّه أَن يُشعَرَ بِهِ، بالذُّهولِ عَنِ الشَّيءِ[7]، والغَفلَةُ انصِرافُ العقلِ والذّهنِ عن تذكُّرِ شيءٍ بقصدٍ أو بغيرِ قَصدٍ، وأكثرُ استِعمالِهِ في القرآنِ فيما كانَ عن قَصدٍ بإعراضٍ وتَشاغُلٍ، والمَذمُومُ منها ما كانَ عَن قَصدٍ، وهوَ مَناطُ التّكليفِ والمُؤاخَذَةِ، فأمّا الغَفلةُ عن غيرِ قصدٍ فلا مُؤاخَذَةَ عليها، وهيَ المَقصودُ مِن قولِ عُلماءِ أصولِ الفقهِ: يُمتَنَعُ تَكليفُ الغَافِلِ[8]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ يَصلحُ أن يكونَ: وَاللهُ اعْلَم: كَانُوا في تَركِهِمُ الإيمَانَ باللَّه، والنَّظَرَ فِيهِ، وَالتَّدبيرَ لَهُ، بِمَنزِلَة الغافِلينَ، وَيجوزُ أَن يكونَ: وَكَانُوا عَمَّا يُرَادُ بهم مِنَ الإثابةِ عليهِ غَافِلين[9]، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الغَفلةِ؛ بمعنى عدمِ التّنبُّهِ وما إليه[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سأحرِمُ المُتكبِّرِينَ الّذين يَتطاوَلون في الأرضِ بالباطِلِ، ويَرونَ أنفسَهُم أعلَى شأنًا من

(1) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غوى).
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/376.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).
(5) الخليل، العين: (غفل).
(6) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(9) ابن سيده، المحكم: (غفل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفل).

موضوعُ الآيةِ صَرفُ الآياتِ عن كلِّ مُتكبِّرٍ كذّابٍ، وغافلٍ مُرتابٍ

غيرِهم، مع أنَّهم أجهلُ النَّاسِ عقلًا، وأتعسُهم حالًا، بركاتِ الاتّباعِ بمنْعِهم فَهْمَ كتابي، وصدِّهم عنِ الإيمانِ بهِ وعن نفعِهِ، وعنِ التَّفكُّرِ في خلقِ السّمواتِ والأرضِ وما فيهما مِنَ الآياتِ والعِبرِ، وعن دلائلِ قُدرتِي القائمةِ في الأنفُسِ والآفاقِ؛ فيتركونَ كلَّ علامةٍ تهدِي إلى طريقِ الحقِّ، والرّشادِ، والصَّلاحِ، ويتَّبعونَ سبيلَ الغيِّ، والضّلالِ، والفَسادِ؛ لِتكذيبِهم بالآياتِ، وغفْلتِهم عنِ الاهتداءِ بها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الآيةُ استِئنافٌ بيانيٌّ مَصَرَّحٌ به، مَسوقٌ للتّحذيرِ، أو جوابُ سُؤالٍ مُقدَّرٍ

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ مَسوقٌ لتحذيرِ قومِ مُوسى عليه السلام عن إدامتِهم العنادَ والإعراضَ عنِ الإيمانِ، والتَّكبُّرَ المُوجبَ لعدمِ التَّفكُّرِ في الآياتِ الّتي هي مَا كَتَبَ في ألواحِ التَّوراةِ مِنَ المَواعِظِ والأحكامِ أو ما يعمُّها وغيرَها مِنَ الآياتِ التّكوينيّةِ الّتي مِن جُملتِها ما وَعَدَ إراءَتُهُ مِن دارِ الفَاسقينَ[2]، فالآيَةُ تكملةٌ لِما خاطَبَ اللّهُ به مُوسى وقومَهُ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ كانُوا يَهابُونَ أُولئِكَ الأقوامَ ويَخشَونَهُم[3]، وسِيقَت لبيانِ أنَّ أعداءَ دُعاةِ الحقِّ هُمُ المُستكبِرونَ؛ لأنّ مِن شأنِ التَّكبُّرِ أن يَصرِفَ أهلَهُ عَنِ النّظرِ والاستدلالِ على وجوهِ الخيرِ[4]، أو هو جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ ناشِئٍ مِنَ الوعدِ بإدخالِ أرضِ الجَبابرةِ والعَمالقةِ على أنّ المُرادَ بالآياتِ ما تُلِيَ آنفًا، ونظائِرُهُ، وبالصَّرفِ عنها إزالَةُ المُتكبِّرينَ عن مَقامِ مُعارَضَتِها ومُمانَعَتِها لِوُقُوعِ أخبارِها وظهورِ أحكامِها وآثارِها بإهلاكِهم على يدِ مُوسى عليه السلام، فكأنّهُم تَساءَلوا كيفَ تُرِينا دارَهُم وتَعِدُنا بها؟ وهل لا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/283، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/376.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، والآلوسي، روح المعاني: 9/60، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/376.

نهلكُ قبلَ الحُلولِ بها ؟ فقيلَ لهم: سَأُهلِكُهُم[1]، أو تكونُ الجُملَةُ جوابًا لسؤالٍ آخرَ لَمَن يقولُ: إذا دخلْنا أرضَ العَدُوِّ فلعلَّهُم يُؤمنونَ بهدينا، ويَتَّبعونَ دِينَنا، فلا نحتاجُ إلى قتالِهِم، فأُجيبُوا بأنّ اللّه يَصرِفُهُم عنِ اتّباعِ آياتِهِ؛ لأنّهُم جُبِلُوا على التَّكبُّرِ في الأرضِ، والإعراضِ عنِ الآياتِ، فالصَّرفُ هنا صَرفٌ تَكوينِيٌّ في نفوسِ الأقوامِ[2].

دَلالةُ الفعْلِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾، على حِمايةِ اللهِ لآياتِهِ ولأَوْلِيائِهِ:

مِن عِناية اللهِ بموسَى وقومِهِ، صرفُ الأذَى عنهم، وتهيئَةُ أسبابِ النّصْرِ لَهم

وَعَدَ اللّهُ تعالى مُوسى عليه السلام بإهلاكِ أعدائِهِ، فمعنى صرْفِهم إهلاكُهم، فلا يَقدِرونَ على منعِ موسى مِن تبليغِها، ولا على مَنعِ المؤمنينَ مِنَ الإيمانِ بها، وهو شبيهٌ بقولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: 67]، فأرادَ تعالى أن يَمنعَ أعداءَ مُوسى عليه السلام مِن إيذائِهِ، ومنْعِهِ مِنَ القيامِ بما يلزمُهُ في تبليغِ النّبوَّةِ والرِّسالةِ[3]؛ أي: سأتَوَلّى دَفعَهُم عنكم، فالصَّرفُ على هذا الوجهِ عِنايةٌ مِنَ اللّهِ بمُوسى وقومِهِ بما يُهيئُ لَهم مِن أسبابِ النَّصرِ على أُولئكَ الأقوامِ الأقوياءِ، كإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِهِم، وتَشتيتِ كَلِمَتِهِم، وإيجادِ الحَوادثِ الّتي تَفُتُّ في ساعِدِ عُدَّتِهِم[4].

سِرُّ قَصِّ الآيَةِ الكريمةِ، على طريقِ التَّعريضِ:

حالُ مُشركِي العربِ الكَفرةِ، كحالِ أُولئكَ الفَاسِقينَ الفَجَرةِ

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ مِن خطابِ اللّهِ تعالى لرسولِهِ مُحمّدٍ ﷺ، فتكونُ الجُملَةُ مُعترِضةً في أثناءِ قصّةِ بني إسرائيلَ بمُناسبةِ قولِهِ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ تعريضًا بأنَّ حالَ مُشرِكِي العربِ كحالِ أُولئكَ الفاسِقينَ[5]، فالكلامُ مع قومٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103 - 104.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/183.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103 - 104.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

رسولِ اللهِ ﷺ مُتَّصِلٌ بما سبقَ مِن قصصِهم، وهو﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ [الأعراف: 100]، وإيرادُ قصّةِ مُوسى وفِرعونَ للاعتبارِ[1]. وفي قَصِّ اللهِ تعالى هذا الكلامَ على مُحمّدٍ ﷺ تَعريضٌ بكفّارِ العَربِ بأنَّ اللهَ دافِعُهُم عن تَعطيلِ آياتِهِ، وبأنَّه مانِعٌ كثيرًا مِنهُم عنِ الإيمانِ بها لَمَا ذكرْناهُ آنِفًا[2].

عِلّةُ اقْتِرانِ فعْلِ الصَّرفِ بالسِّينِ:

إنّ اللهَ تعالى يُحقِّقُ الصَّرفَ، ويُعجِّلُ فيه بمشيئتِه الغالبةِ

هو حرفُ استقبالٍ وتسويفٍ يُفيدُ توكيدَ تحقُّقِ الفعلِ في المُستقبَلِ[3]، واقترانُ الفعلِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾ بسينِ الاستقبالِ القريبِ تنبيهٌ على أنَّ اللهَ يُعجِّلُ ذَلكَ الصَّرفَ[4].

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ به:

آياتُ اللهِ مُقدَّمةٌ، باعتبارِ العِنايةِ والاهتمامِ والتَّشْويقِ

وتقديمُ شبْهِ جملةِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ على مَفعولِ الصّريحِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾؛ لإظهارِ الاعتناءِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع أنّ في المُؤخَّرِ نوعَ طولٍ يُخِلُّ تقديمُهُ بتَجاوُبِ أطرافِ النّظمِ الجَليلِ[5]، ولِلاهتمامِ بالآياتِ؛ ولأنّ ذكرَهُ أحسنُ عَقبَ الفعلِ المُتعلِّقِ هو بِهِ[6].

نُكتةُ تَعْريفِ المَصْروفِين، بالاسْمِ الموصولِ:

مَنْ تخلَّقَ بِرَدِيءِ الصِّفاتِ، رِيْنَ على قلبِهِ، ومُنِعَ النَّصْرَ

تَعريفُ المَصرُوفِينَ عنِ الآياتِ بطريقِ الموصوليّةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للإيماءِ بالصّلةِ إلى علّةِ الصَّرفِ، وهي مَا تَضمَّنَتهُ الصِّلاتُ المَذكورَةُ؛ لأنّ مَن صَارَت تلكَ الصّفاتُ حالاتٍ لهُ لن يَنصُرَهُ اللهُ؛ أو لأنّهُ إذا صارَ ذلك حالَهُ رِينَ على قلبِهِ، فصُرِفَ قلبُهُ عَن إدراكِ دَلالةِ الآياتِ، وزالَت منهُ الأهليَّةُ لِذلكَ الفَهمِ الشَّريفِ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/577 - 578، والآلوسي، روح المعاني: 9/60.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(3) الجلالان، المفصّل، ص: 599.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، والآلوسي، روح المعاني: 9/61.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

والأوصافُ الّتي تضمَّنَتها الصِّلاتُ في الآيَةِ تَنطَبِقُ على مُشرِكي أهلِ مَكّةَ أتَمَّ الانطِباقِ[1].

لَطيفةُ التَّعْبيرِ عنِ التَّكبُّرِ، بصِيغةِ التَّفعُّلِ:

كـونُهـم تكلَّفُوا الـكِـبْرَ، وما هُم بِكِبارٍ حقًّا، منَ السَّفَهِ والضَّعَةِ

التَّكبُّرُ الاتّصافُ بالكِبْرِ، وقد صِيغَ لهُ الصِّيغةُ الدّالّةُ على التَّكلُّفِ، والتَّعمُّلِ، والتَّكثُّرِ مِنَ الكبرِ، والمعنى: أنّهُم يُعجَبُونَ بأنفُسِهِم، ويَعُدُّونَ أنفُسَهُم عُظماءَ، ويَجتهدونَ في التَّكبُّرِ عِنادًا وكُفرًا؛ فلا يَأتَمِرونَ لِآمِرٍ، ولا يَنتَصِحُونَ لِناصِحٍ، وذَلِكَ شأنُ مَن يَرَى أنَّه أكبرُ مِن أن يخضعَ لحقٍّ، أو يُساوِيَ نفسَهُ بشخصٍ، فالتَّكبُّرُ: غمْطُ الحقِّ بعدمِ الخضوعِ له، واحتقارُ النَّاسِ[2].

ومِن لطائفِ اللّغةِ العربيّةِ أنّ مادّةَ الاتّصافِ بالكبرِ لم تجئْ منها إلّا بصيغةِ الاستِفعالِ، أوِ التَّفعُّلِ إشارةً إلى أنّ صاحبَ صفةِ الكِبرِ لا يكونُ إلّا مُتطلِّبًا الكِبرَ، أو مُتكلِّفًا له، وما هو بكبيرٍ حقًّا[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ التَّكبُّرِ بصِيغةِ المضارعِ:

تَـوْجِـيـهُ الـكـلامِ إلى كـلِّ مُتكبِّرٍ من دونِ تَحديدٍ

قوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ مَجيئُهُ بصِيغةِ المضارعِ أمارةُ استمرارِهِم عليهِ، وتَكرارِهِم إيّاهُ. معناه: أنّ ما وَرَدَ في الآياتِ نتيجةَ هذا الاستكبارِ قد لا يَختصُّ به فِرعونُ وقومُهُ فحسْبُ، وإنّما هو مُوجَّهٌ إلى كُلِّ مَنِ اتّصفَ بهذهِ الصّفةِ المذمومةِ إلى يومِ الدّينِ[4].

بَلاغةُ الإطنابِ، بزيادةِ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

فضْحُ تكبُّرِهِم، والتَّشهيرُ بهم بـأنَّ كِـبرَهُـم مَـظـرُوفٌ في الأرضِ

أي: ليسَ هوَ خفيًّا مُقتَصِرًا على أنفسِهِم، بل هُوَ مَبثُوثٌ في الأرضِ؛ أي: مَبثوثٌ أثَرُهُ، فهو تَكبُّرٌ شائِعٌ في بِقاعِ الأرضِ كقولِهِ: ﴿يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 23]، وقولِهِ: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: 27]، وقولِهِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37][5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/170، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/425.
(4) الحسنيّة، هدايات وألطاف من سورة الأعراف، ص: 145.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104 - 105.

دَلالةُ الباءِ، في قولِه: ﴿بِغَيۡرِ﴾:

التلبّسُ بالباطلِ وبغيرِ الحقِّ، دَيْدنُ مَن لا يَعرفُ لله وَقارًا

الباءُ للمُلابسةِ؛ والمعنى: أنَّهم يَتكبَّرونَ حالةَ كونِهم مُتلبِّسينَ بغيرِ الحقِّ؛ أي: مُنغمِسينَ في الباطلِ، غيرَ مُستحقِّينَ للحقِّ[1].

وُجوهُ التَّعْبيرِ بقولِه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

التّشنيعُ على المُتكبِّرِ؛ بذِكرِ ما هو صِفةٌ لازمةٌ لَهُ، أو كَوْنُ غيرِ الحقِّ قيدًا للتَّكبُّرِ

وقولُهُ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ زيادةٌ لِتشنيعِ التَّكبُّرِ بِذِكرِ ما هو صِفةٌ لازمةٌ لَهُ، وهو مُغايَرَةُ الحقِّ؛ أي: دِينُهُم الباطلُ وظلمُهُم المُفرِطُ، وهي حالٌ لازمةٌ للتَّكبُّرِ، كاشِفَةٌ لوصْفِهِ؛ إذِ التَّكبُّرُ لا يكونُ بحقٍّ في جانبِ الخَلْقِ، وإنّما هو وصفٌ للّهِ بحقٍّ؛ لأنَّه العظيمُ على كُلِّ مَوجودٍ، كما في الحديثِ القُدسيِّ: «الكِبرياءُ رِدائِي، والعَظَمَةُ إزارِي، فمَن نازَعَني واحدًا منهما قَذَفْتُهُ في النَّارِ»[2]. وقد يكونُ قولُهُ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قيدًا للتَّكبُّرِ؛ لأنّ إظهارَ الكِبرِ على الغيرِ قد يكونُ بالحقِّ، فإنَّ لِلمُحِقِّ أن يتكبَّرَ على المُبطِلِ، وكذلكَ التَّكبُّرُ على المُتَكبِّرِ[3]، بتصوّرِ تكلُّفِ إعلاءِ نفسِهِ على غيرِهِ أو إكثارِهِ مِنَ الاستعلاءِ عليه بحقٍّ كالتَّرفُّعِ عنِ المُبطلينَ، وإهانةِ الجبّارينَ، واحتقارِ المُحارِبينَ[4].

دَلالةُ الوصْلِ، والتَّعْبيرِ بالجُملَةِ الفعْليّةِ:

تجدُّدُ الجُحودِ، بتجدُّدِ الرُّؤيةِ من كلِّ غاوٍ كَنُودٍ

وقولُهُ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ عُطِفَ على قولِهِ: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، فهو في حُكمِ الصِّلةِ، والقَولُ فيه كالقَولِ في قولِهِ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: 96 - 97][5]، وصِيغَتْ بالجُملَةِ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/170.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105، والحديث أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، الحديث رقم: (4090) عن أبي هريرة، باب ما جاء في الكِبرِ: 4/102، ورواه ابنُ عبَّاس، كما في سنن ابن ماجه بلفظِ: ((ألقيتهُ في النّار)): بابُ البراءَةِ مِنَ الكِبرِ والتّواضع، الحديث رقم: (4175): 2/1397.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/4، والآلوسي، روح المعاني: 9/61.

(4) محمّد رضا، تفسير المنار: 9/170.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105.

الفعليّة؛ للدَّلالةِ على تَكرارِ الجحودِ وعدمِ الإيمانِ، وتجدُّدِهما بتجدُّدِ رؤيةِ الآياتِ وتَكرارِهما عليهم.

دَلالةُ جزْمِ فعْلَيِ الشّرطِ وجَزائِه:

جـزْمُ الفِعلَينِ نفيٌ للإيمانِ، وتأكيدٌ للتَّلَفِ، وترسيخٌ للكُفرانِ

جزمُ الفعلينِ المُضارِعينِ ﴿يَرَوْاْ﴾ فعلًا للشّرط "إن"، و﴿يُؤْمِنُواْ﴾ جوابًا لها، وتوسيطُ ﴿كُلَّ﴾ الدَّالّةِ على العمومِ والكثرةِ نفيٌ للإيمانِ، وتأكيدٌ لصفةِ الكِبرِ الّتي تلبَّسُوا بها، وترسيخٌ لشدّةِ المُعارَضةِ، والنُّفورِ عنِ التَّفكُّرِ في آياتِه تعالى مهما تكرَّرَت عليهم، وأُعِيدَ أُنموذجُها.

دَلالةُ لفْظِ ﴿كُلَّ﴾ بينَ المَجازِ والحقيقةِ:

الـدّلالـةُ على الـكَـثْرةِ بـكَـوْنِ الآيـــاتِ، لا يُتصوَّرُ لها عددٌ يُحاطُ بِهِ

﴿كُلَّ﴾: لاستغراقِ أفرادِ النّكرةِ، وهي في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ مُستعمَلةٌ في معنى الكَثرةِ، والمُرادُ بـ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾ آياتٌ مُتكاثرةٌ، وفُسِّرَت بالحُجّةِ والدَّليلِ. وإطلاقُ لفظِ ﴿كُلَّ﴾ على الكَثرةِ شائعٌ في كلامِ العربِ، وأصلُهُ مَجازٌ لجعْلِ الكثيرِ من أفرادِ شيءٍ مُشابهًا لمجموعِ عُمومِ أفرادِه، ثمّ كَثُرَ ذلك حتَّى ساوى الحقيقةَ، فصارَ معنى مِن معاني كلٍّ لا يحتاجُ استعمالُهُ إلى قرينةٍ، ولا إلى اعتبارِ تشبيهِ العددِ الكثيرِ من أفرادِ الجنسِ بعُمومِ جميعِ أفرادِه حتَّى إنَّه يَردُ فيما لا يُتصوَّرُ فيه عمومُ أفرادٍ، مثل قولِه هنا: بـ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾؛ فإنّ الآياتِ لا يُتصوَّرُ لها عددٌ يُحاطُ به[1].

بَلاغةُ الاستِعارةِ، بألفاظِ السَّبيلِ، والرُّؤيةِ، والاتّخاذِ:

تَـعـالُـقُ الاسْـتِـعـاراتِ، بـــراعـــةٌ في التّصْويرِ الفَنّيّ

لمّا نَفَى عنهمُ الإيمانَ، وهو مِن أفعالِ القَلبِ، استَعارَ للرُّشدِ والغَيِّ سَبيلَين، فَذَكَرَ أنّهم تاركُو سبيلَ الرُّشد، سالكُو سبيلَ الغَيِّ[2]، فالسّبيلُ مُستعَارٌ لوسيلةِ الشَّيءِ بقرينةِ إضافتِه إلى الرُّشدِ وإلى الغَيِّ، والرُّؤيةُ مُستعارةٌ لِلإدراكِ، والاتّخاذُ حَقيقتُهُ مُطاوِعُ أخَّذَهُ بالتّشديدِ، إذا جَعَلَهُ آخِذًا، ثمّ أُطلِقَ على أخذِ الشَّيءِ ولَو لَم يُعطِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35 - 36: 9/105.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

إيّاهُ غَيرُهُ، وهو هنا مُستَعارٌ لِلمُلازَمَةِ؛ أي: لا يُلازِمُونَ طَريقَ الرُّشدِ، ويُلازِمونَ طريقَ الغَيِّ[1]، والمُرادُ بهذه الاستعاراتِ النُّفورُ عن اتّباعِ الرُّشدِ باتّباعِ الغَيِّ، وليسَ هناك على الحقيقةِ طريقٌ يُقصَدُ، ولا فَجٌّ يُسلَكُ[2].

بَديعُ تَراتُبِ النَّظْمِ، وتَسلسُلِ النّقائضِ في السِّياقِ:

إظهارٌ لمبدأِ تَلازُمِ الأفعالِ، ومُؤدَّى بعْضِها إلى بعضٍ

ذَكَرَ مُوجِبَ الإيمانِ، وهو الآياتُ، وتَرتَّبَ نقيضُهُ عليهِ، وأَتبَعَ ذَلِكَ بمُوجِبِ الرُّشدِ، وتَرَتَّبَ نقيضُهُ عليهِ، ثمّ جاءَتِ الجُملَةُ بعدَها مُصَرِّحَةً بسلوكِهِم سبيلَ الغَيِّ ومُؤكَّدةً لِمَفهومِ الجُملَةِ الشّرطيّةِ قبلَها؛ لأنَّه يَلزَمُ مِن تَركِ سبيلِ الرُّشدِ سُلُوكُ سَبيلِ الغَيِّ؛ لأنَّهما إمَّا هُدًى وإمّا ضَلالٌ، فَهُما نَقيضانِ إذا انتَفَى أحَدُهُما ثَبَتَ الآخَرُ[3]، وذلكَ مِن بديعِ نظْمِ القرآنِ في تلازمِ الأفعالِ وتسلْسُلِ عرضِها بالابتداءِ بالأولَى، وما يترتَّبُ عليه، ثمّ التّصريحُ بنقيضِهما في مَشهَدٍ مُترابِطِ المعنى، مُنسَجِمِ اللّفظِ، مُنسبِكِ التّركيبِ يُصوِّرُ - بدقّةٍ - الحالَ والمآلَ، ذلك أنّه تَعَالَى لمّا أَخبَرَ بتكبُّرِهم في الحالِ عَطَفَ عليه فِعلَهُم في المآلِ مِن عدمِ إيمانِهم بالآياتِ مهما كثُرَت، وعدمِ سلوكِ سبيلِ الرُّشدِ بقصْدٍ منهم، ونَظَرٍ، وتَعمُّدٍ، بل إنْ سَلَكوهُ فعَن غيرِ قصدٍ، وإصرارُهُم على سلوكِ سَبيلِ الغَيِّ بغَايةِ الشّهوَةِ، والتَّعمُّدِ، والاعتِمالِ لِسُلُوكِهِ[4].

بَلاغةُ طِباقِ الإيجابِ والسّلْبِ:

بيانٌ للمعنَى، ومَزيدُ إيضاحِهِ في ثنايَا الطِّباقِ المُدْرَجِ في السِّياقِ

﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ عبارةٌ عن سبيلِ الهُدى والدّينِ الحقِّ والصّوابِ في العلمِ والعملِ، و﴿سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ ما يكونُ مُضادًّا لذلك[5]، فالرُّشدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105.
(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان، ص: 77.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/5.

والغَيُّ مِن طباقِ الإيجابِ، ولا يتّخِذُوهُ، ويتّخذُوهُ مِن طباقِ السَّلبِ بالإثباتِ والنَّفي، فالرُّشدُ الصّلاحُ وفعلُ النّافعِ، والمُرادُ به هنا: الشَّيءُ الصّالحُ كلُّهُ مِنَ الإيمانِ والأعمالِ الصّالحةِ، والغَيُّ الفسادُ والضّلالُ، وهو ضدُّ الرُّشدِ بهذا المعنى.

فالمعنى: إنْ يُدرِكُوا الشَّيءَ الصّالحَ لَم يَعمَلُوا بهِ لِغلَبةِ الهوى على قلوبِهِم، وإنْ يُدرِكُوا الفَسادَ عَمِلُوا بهِ لِغلَبةِ الهَوى، فالعَمَلُ بهِ حَملٌ للنّفسِ على كُلفَةٍ، وذَلِكَ تَأبَاهُ الأنفُسُ الّتي نشأَت على مُتابعةِ مَرغُوبِها[1]، وفي هذين الطِّباقَين إفصاحٌ عَن دلالةِ الرَّبطِ في الجملتَيْن المؤدِّي إلى مَزيدِ إيضَاحٍ لِلمعنى، وبيانِهِ؛ بما يُسبّبُهُ مِن شدٍّ وجَذْبٍ على النّفسِ المُتلقّيَةِ له قراءةً وتَدبُّرًا، وفي ذَلكَ تعزيزٌ للوظيفةِ الإبلاغيّةِ للطّباقِ بالوظيفةِ التّأثيريّةِ الّتي يَترسَّخُ من خلالِها المَنهجُ الفِطريُّ السّليمُ للنّفسِ البشريّةِ باتّباعِ سبيلِ الرُّشدِ، ونبْذِ نقيضِهِ، وزادَ تَعالُقَ الطّباقَين مِن ترسيخِ هذهِ.

سِرُّ تَكْرارِ ألفاظِ (الرُّؤيةِ)، و(السَّبيلِ)، و(الاتّخاذِ):

في التَّكرارِ اعتبارٌ، واستِئنافُ التّنبيهِ، وتجدُّدُهُ، وإيذانٌ بالاختلافِ

لمّا كانَ الكلامُ – في وجهِ تفسيرٍ تقدَّمَ ذكرُهُ – مُوجَّهًا لقومِ النَّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ تنبيهًا لهم مِن سِنَةِ الغفلةِ، وشَحْذًا لقلوبِهِم بتجدُّدِ الموعظةِ، كانَ تَكرارُ ألفاظِ الرُّؤيةِ، والسّبيلِ، والاتّخاذِ – بمحمولاتِها الدَّلاليّةِ الحقيقيّةِ والمَجازيّةِ المَطروحةِ على طريقِ الاستعارةِ – مِن لوازمِ الاعتبارِ، واستئنافِ التَّنبيهِ، وتجديدِهِ لِئلَّا يقعوا فيه تعمُّدًا، أو سهوًا وغَفلةً. فرؤيةُ الآياتِ – لِسعةِ دلالتِها – إجمالٌ، أمارتُهُ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كُلَّ﴾ الدّالِّ على العُمومِ. وطريقُ الرُّشدِ وطريقُ الغَيِّ مُتضادّان مُتناقِضان، والتَّكرارُ مُؤذِنٌ بالاختلافِ، دالٌّ عليه، مُؤكِّدٌ له؛ والمعنى: هذه آياتي الكثيرةُ، وهذا طريقُ الرُّشدِ، وهذا طريقُ الغَيِّ. وتَركُ الرُّشدِ، واتِّباعُ الغَيِّ دليلُ مُناقضةِ الفِطرةِ السّليمةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105 - 106.

فائِدةُ التَّعْبِيرِ بالأفعالِ المُضارِعةِ:

تجـدُّدُ أفـعَـالِ الـصّـدِّ عـنِ الرُّشدِ، والعزمُ على الاستمرارِ على الغَيِّ

التَّعبيرُ في الصِّلاتِ الأربَعِ بالأفعالِ المُضارَعَةِ: ﴿يَرَوْاْ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ، و﴿يَتَّخِذُوهُ﴾ مرّتين بالنَّفْيِ والإثباتِ وبصِيغةِ الجُملِ الفعليّةِ المُكرَّرةِ بألفاظِها: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ﴾، و﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، و﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أفادَت تجدُّدَ أفعالِ الانتهاءِ عنِ الرُّشدِ، والعزمِ على الغيِّ لدَيْهم، واستمرارَهُم عليها، ورسَّخَت مِن ثمَّ صفاتِ الكِبرِ، والجُحودِ، والتّكذيبِ عندَهُم، فالجُملُ الأربعُ يُؤكِّدُ بعضُها بعضًا، فيكون في تَكرارِها بالغُ النّهايةِ في التَّحقيقِ[1].

العُدولُ بالكلامِ إلى الفصْلِ:

التَّكذيبُ صورةُ الكِبْرِ، ومُسبِّبٌ عنه

وجملةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ تَوسِيمَهُم بتلكَ الصِّلاتِ يُثيرُ سُؤالًا[2]، والمقامُ هنا مَقامُ التَّعليلِ المُضَمَّنِ التَّحذيرَ والتَّقريعَ، فالتّكذيبُ صورةُ الكِبرِ، ومُسبِّبٌ عنه؛ وهو أدعى إلى الفَصلِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

فائِدةُ الإشارةِ، تأويلُ المُشارِ إليه بالمذكورِ

استُعمِلَ له اسمُ إشارَةِ المُفرَدِ لتأويلِ المُشارِ إليه بالمذكورِ كقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: 68]؛ أي: مَن يَفعَل المَذكورَ، وهَذا الاستِعمالُ كثيرٌ في اسمِ الإشارةِ، وأُلحِقَ بِهِ الضَّميرُ كما تقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 61][3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالباءِ السَّببيّةِ، في: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ﴾:

أفادَتِ الجُملَةُ بيانَ سببِ الكِبْرِ، وجَعْلِه سببًا لِلسَّبِ

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سببيّةٌ؛ أي: كِبرُهُم، وعَدَمُ إيمانِهم، واتِّباعُهم ﴿سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾، وإعراضُهُم عن ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ سَبَبُهُ

(1) الجلالان، المفصّل، ص: 600، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.

تَكذيبُهُم بالآياتِ، فأفادَتِ الجُمْلَةُ بيانَ سببِ الكِبْرِ، والإعلامَ بأنّ ذلك الصَّرفَ سببُهُ التّكذيبُ، وما عُطِفَ عليهِ مِنَ الأوصافِ الّتي هي سَبَبُ صَرفِهِم عنِ الآياتِ، فكانَ ذلكَ سَبَبَ السّبَبِ، وهذا أَحسَنُ مِن إرجاعِ الإشارةِ إلى الصّرفِ المأخوذِ مِن ﴿سَأَصْرِفُ﴾؛ لأنّ هذا المَحمَلَ يَجعَلُ التّكذيبَ سببًا ثانيًا لِلصَّرفِ، وجَعلُهُ سَبَبًا لِلسّببِ أرشَقُ[1].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إشعارٌ بأنَّ الصّرفَ سببُهُ هذا التَّكبُّرُ، وفي قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟﴾ إعلامٌ بأنّ ذلكَ الصّرفَ سَبَبُهُ التَّكذيبُ، والجَمعُ بينَهُما أنّ التَّكبُّرَ سَبَبٌ أوَّلٌ نَشَأَ عنهُ التّكذيبُ، فَنِسبةُ الصَّرفِ إلى السَّببِ الأوّلِ وإلى ما تَسَبَّبَ عنهُ[2].

عِلّةُ التّعْبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

واجتُلِبَت (أنّ) في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الدَّالّةُ على المَصدَريّةِ والتّوكيدِ؛ لتحقيقِ سببِ الكِبرِ، وسببِ الصّرفِ وتأكيدِهِ[3]، فالتَّعبيرُ بالمَصدَرِ المُنسبكِ أقوى في الدَّلالةِ على الحَدَثِ مِنَ الفعلِ، وهو يُناسِبُ معنى التَّحذيرِ والتّقريعِ الّذي تتضمَّنُهُ الآيَةُ الكريمةُ.

تَحقيقُ التّسبيبِ، وتأكيدُهُ في السّياقِ

التَّعْبيرُ عن فعْلِ الكذِبِ، بصِيغةِ الماضِي:

جُعِلَ المُسندُ فِعلًا ماضيًا ﴿كَذَّبُوا۟﴾؛ لإفادةِ أنَّ وصفَ التَّكذيبِ قَديمٌ راسِخٌ فيهم، فكانَ رُسُوخُ ذلك فيهم سَبَبًا في أنْ خَلَقَ الطّبعَ والخَتمَ على قُلُوبِهِم فلا يَشعُرُونَ بنقائِصِهِم، ولا يُصلِحُونَ أنفُسَهم، فلا يَزالُونَ مُتَكَبِّرينَ مُعرِضينَ غاوِينَ[4].

إفادةُ أنَّ وصْفَ التَّكْذيبِ، قديمٌ راسِخٌ فيهم، والتَّعبيرُ بهِ على الابتداءِ لا الإخْبارِ

ومعنى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنَّهم ابتدأوا بالتّكذيبِ، ولم يَنتظِرُوا، ولم يَهتَمُّوا بالتَّأمُّلِ في الآياتِ فَدامُوا على الكِبرِ وما معَهُ، فَصَرَفَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(4) بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.

اللّهُ قلوبَهُم عَنِ الانتفاعِ بالآياتِ، وليسَ المُرادُ الإخبارَ بأنَّهم حَصَلَ مِنهُم التّكذيبُ؛ لأنَّ ذَلِكَ قد عُلِمَ مِن قولِهِ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾[1].

دَلالةُ جُملتَيِ الإخبارِ، في سِياقِ الآيةِ:

التّنبيهُ على ضَرورةِ الكذبِ لهم دَيْدنًا، وأنَّ غفلتَهُم عن قَصْدٍ

صِيغَت جُملتا التَّكذيبِ والغَفلةِ؛ لِلدَّلالةِ على أنّ ذلكَ الصّرفَ عنِ الآياتِ هو سببُ تكذيبِهِم بها، وغَفلتِهِم عنِ النَّظرِ فيها، والتَّفكُّرِ في دلالتِها، والمعنى: أنَّهم وَقَعَ كَذبُهُم، واستمرَّ وصارَ لهم ذلك دَأبًا وديدنًا، وأنّ مِن شأنِهِم الغَفلةَ عنِ الآياتِ وعن تدبُّرِها، حتّى صارَت لا تَخطُرُ لَهم ببالٍ، فحصلَتِ الغَفلةُ عنها والنّسيانُ لها، حتّى كانُوا لا يَذكُرُونَها، ولا شَيئًا منها[2]، وإنّما كانَت كَذلِكَ إذا كانُوا قد التزمُوها (والغفلةَ أعني)، وتقصّدُوا فِعلَها، ولو كانَت عن غيرِ قَصدٍ؛ فإنّها قد تَعتَرِيهِم، وقد تُفارِقُهُم[3].

بَلاغةُ التّقديمِ، والتَّعْبيرِ باسْمِ الفاعلِ في السِّياقِ:

الآياتُ مَقصَدُ العِنايةِ، بوصْفِها مَقصَدَ الغَفلةِ

قُدِّمَ الجارُّ ومجرورُهُ: ﴿عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ للعنايةِ بالآياتِ، وبيانِ كونِها هي مَقصَدُ الغَفلةِ، وصِيغَ الخبرُ باسْمِ الفاعلِ تَرسيخًا لمعنى الغَفلةِ عنِ الآياتِ فيهم؛ أي: أنَّهم وَاظَبُوا على الإعراضِ عنها، وتجذّرَ ذلك فيهم، حتّى صاروا بِمَنزِلَةِ الغافلِ عنها[4].

عِلّةُ التّبايُنِ في نِسبةِ الآياتِ إليه تعالى:

تناسُبُ سِياقِ الآياتِ، يَعكِسُ مُستوَى البيانِ السّامِي

افتتحَ تعالى الآيَةَ بنسبةِ الآياتِ إليهِ تعالى بضَمِيرِ المُتَكلِّمِ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾، وخَتَمَ الآيَةَ بنسبتِها إليه بضَمِيرِ التَّعظيمِ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والعُدولُ عن ضَمِيرِ التَّعظيمِ في المُفتَتَحِ ليناسبَ التَّعبيرَ في الآيَةِ السّابقةِ لها بصيغةِ المُتَكلِّمِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389، وابن عادل، اللّباب: 9/314.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/5.

وقَصَدَ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ في الختامِ لِيناسِبَ الآيَةَ الّتي بعدَها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغَيُّ، والضّلالُ، والفسادُ:

فـي الـغَـيِّ معنَى التَّعمُّدِ والـخَـيـبـةِ، والانْـجـذابِ إلى ما يترتَّبُ عليه الفسَادُ

إنّ كلَّ غيٍّ قَبيحٌ، وَيجوزُ أَن يكونَ الفَسَادُ لَيسَ بقبيحٍ، كفسادِ التّفاحةِ بتعفُّنِها، وإذا قُلْنَا: فلَانٌ فَاسدٌ اقتَضى ذَلك أَنّه فَاجِرٌ، وَإذا قُلْتَ: إنَّه غاوٍ اقتَضى فَسَادَ المَذهَبِ والاعتقادِ[1]. ففي الغَيِّ معنى الانجذابِ إلى ما يترتَّبُ عليه الفسادُ، فكأنّ فيه درجةً مِنَ التَّعمُّدِ[2]، ولذلك أُوثِرَ استعمالُهُ على الفسادِ لِتعمُّدِهم إيّاهُ فِعلًا. أمّا الضَّلالُ فمع كونِهِ عنِ الدّينِ، فهو أبلغُ مِنَ الغَيِّ فيه، إلّا أنّه يُستعمَلُ للابتعادِ عنِ الدِّينِ، وعنِ الطّريقِ، وَلَا يُستعمَلُ الغَيُّ إلَّا في الدّينِ خَاصَّةً، فَضْلًا عنِ اختصاصِ استِعمالِ الغَيِّ في الخيبةِ، يُقَالُ: غوى الرَّجُلُ إذا خَابَ في مَطلَبِهِ[3]. وتخصيصُ الاستعمالِ في الدِّينِ، مع مَلمَحِ الخيبةِ يُناسبان سياقَ الآيَةِ الكريمةِ الّتي يدورُ الحديثُ فيها عن آياتِ اللّهِ الخاصّةِ بشريعتِهِ، وأحكامِ دينِهِ. وسُلوكُهم سَبيلَ الغَيِّ مع وضوحِ طريقِ الرُّشدِ مُنتَهى الخيبةِ.

غَفلَ، وذَهلَ، وسَهَوَ، ونَسيَ:

الـغَـفـلـةُ عـدَمُ إدْرَاكِ الشَّيءِ، لِقِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ، وهي المُؤثَرَةُ في الآيةِ الكريمةِ

غَفَلَ: الغَينُ والفاءُ واللَّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ سَهوًا، وربَّمَا كانَ عَن عَمدٍ[4]. الغَفلةُ: سَهوٌ يَعتري مِن قِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ؛ وقِيلَ: مُتابَعَةُ النَّفسِ على ما تَشتَهِيهِ. والغَفلَةُ: عدمُ إدرَاكِ الشَّيءِ مَعَ وُجودِ مَا يَقتَضِيهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: 17]؛ أي: مُهمِلِينَ أَمرَهُم. ولمَّا كانَتِ الآيَةُ الكريمةُ ابتدأَت

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 214.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غوى).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).

بـالصَّرفِ الّذي يعني المَنعَ، والصَّرفَ، والإبعادَ، ناسبَهُ أنْ تُختَمَ بقولِهِ: ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ لأنّ مَن منعَهُ اللّهُ ألطافَهُ، وصدَّهُ عن آياتِهِ كانَ في غفلةٍ تامَّةٍ لا تيقُّظَ معها، ولا إدراكَ.

والذُّهْلُ: تَرْكُكَ الشَّيءَ تَتناساه على عَمْدٍ، أو يشغَلُكَ عنه شاغلٌ، ويَدُلُّ عَلَى شُغلٍ عَن شَيءٍ بِذُعرٍ أَو غَيرِهِ، فَهُوَ عدمُ استثباتِ الإدرَاكِ حَيرةً ودهشةً، وهو: شُغلٌ يُورِثُ حُزنًا ونِسيَانًا[1]. ولمَّا كانَ سياقُ ورودِ اللّفظةِ في مَشهَدِ الآخرةِ العظيمِ ناسبَهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحجّ: 2]؛ لأنَّه يَجعلُها تَنشَغلُ عن رضيعِها مَذعورةً مَحزونةً مِن هولِ المَنظَرِ[2]. والنّسيَانُ إنَّمَا يكونُ عَمَّا كَانَ، والسّهوُ يكونُ عَمَّا لم يَكُنْ، تَقول: نَسِيتُ مَا عَرفتُهُ، وَلَا يُقَالُ: سَهَوْتُ عَمَّا عَرفتُهُ. وإنّما تَقولُ: سَهَوْتَ عَنِ السُّجُودِ في الصَّلَاةِ، فتجعلُ السَّهْوَ بَدَلًا عَنِ السُّجُودِ الَّذي لم يكُنْ، فالنِّسيَانُ يكونُ لَمَا غابَ بعدَ حُضُورِهِ، والسَّهوُ يكونُ لمَا عَلِمَهُ الإنسَانُ، وَلَمَا لَا يعلمُهُ. فالإنسَانُ إنَّمَا يَنسَى مَا كانَ ذاكِرًا لَهُ، والسّهوُ يكونُ عَن ذِكرٍ، وَعَن غيرِ ذِكرٍ؛ لأَنَّهُ خَفَاءُ المَعنى بِمَا يمتَنعُ بِهِ إدرَاكُهُ. ويُعبَّرُ عن تَركِهِ عَن غَيرِ عِلمٍ: (بالسَّهوِ فيهِ)، ويُعبَّرُ عن تَركِهِ مَعَ العِلمِ: (بالسَّهوِ عَنهُ)[3]، ومِنهُ قَولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: 5].

والسَّهوُ: خطأٌ عَن غَفلَةٍ، أو هو غَفلَةٌ يَسيرَةٌ عَنِ الحافِظَةِ يَتَنَبَّهُ بأَدنى تَنبيهٍ، والنِّسيانُ زَوَالُهُ عَنهَا كُلِّيَّةً، بِحيْثُ يحتَاجُ إِلَى تَحصِيلٍ جَدِيدٍ. وَلِذَا عَدَّهُ الأطبَّاءُ مِن الأَمراضِ دُونَه. فالنِّسيانُ: هُوَ تَركُ ضَبطِ مَا استُودِعَ إمَّا لضعْفِ قَلبِهِ، وإمَّا عَن غَفلَةٍ، وإمّا عَن قَصْدٍ حَتَّى يَنحَذِفَ عَنِ القَلبِ. ومن هنا فرَّقُوا بينَ (السَّاهِي والنَّاسي)؛ بأنَّ النَّاسي إذا ذُكِّرَ تَذَكَّرَ، والسَّاهِي بخِلافِه[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذهل)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506.
(2) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/566.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506، وابن منظور، لسان العرب: (سها).
(4) الرّاغب، المفردات: (نسي)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506، والفيروزباديّ، تاج العروس: (سهو).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»